

# مدينة الثورة في بغداد: خزان الدم

في ظهيرة العشرين من شباط / فبراير 1999 وقف قصي صدام حسين على جسر يربط مدينة الصدر ببقية بغداد وراح يقول للحرس الخاص، وهم نخبة الحرس الجمهوري: «إن لم تهدأ الأوضاع، أريد أن أقف في مكاني هذا وأشاهد السدة»، في إشارة إلى محو المدينة عن بكرة أبيها. كان هذا المربع المرصوف بدقة على هامش بغداد آنذاك يسمى «مدينة صدام» بعد أن كان اسمه «مدينة الثورة» على مدى عقدين من عمره بدءاً من ثورة 1958 التي قضت على الملكية، وقبل ذلك كيبوت من صفح باسم «خلف السدة» إشارة للنهر القريب، ليتحول بعد الغزو الأميركي للعراق في نيسان / أبريل 2003 إلى «مدينة الصدر».

مخطط عمراتي بارد

لم يكن أهل «الثورة» أو «الصدر» يحملون أن يتصدروا عناوين الأخبار يوماً، ليس لأن مدينتهم غير مثيرة للاهتمام، بل لأنها من أسرار بغداد المكتومة في ظل حكم حزب البعث. فهي الخزان البشري الذي لا ينضب في الحروب، والشوارع الخلفية التي احتضنت الحركات السياسية المعارضة في سجن من دون قضبان. بعد الغزو سرقت الكاميرات حياة المدينة ذات الثمانين ألف بيت. جاء هذا بالتزامن مع مواجهات القوات الأميركية وجيش المهدي (الجناح العسكري للتيار الصدري) وسلسلة أحداث العنف الطائفي في بغداد أعوام 2006 / 2008.

المؤرخة العمارية الهولندية ميشيل بروفوست تحدثت عن مصمم مدينة «الثورة»، مخطط المدن اليوناني قسمنطليثوس دوكسيادس الذي اعتمد على ما سمي آنذاك بـ«أوكستيك» أو علم المستوطنات البشرية، وهو تعبير يشير إلى مدن ليس متاحاً لها أن تنمو بصورة طبيعية وحسب احتياجاتها للمواصلات والمنافذ الحيوية، بل يفترض – بحسب اليوناني دوكسيادس مصممها – أن تكون مخطط لاستقبلها أيضاً. يبدو تاريخ «مدينة الثورة» السياسي كهدا، وقد سُمِّم هو أيضاً كي تكون سجنًا أو حيزاً مرافقاً من قبل الأنظمة السياسية المتعاقبة، وهو ما يظهر في عام 1991 وفي عام 1999 أو في السنوات الأربع بين 2006 و2010 حيث حوصرت المدينة بشكل سهل وأُخذت انتفاضتها الواحدة تلو الأخرى. تقول بروفوست «الإجابة تكمن في الطبيعة العقلانية الصارمة لهذا المخطط والطريقة التي عرض فيها دوكسيادس عمله بصفته علماً خالصاً. فكان يستعرض مخطفه على شكل شبكات جاهزة وجداول ورسوم بيانية ونماذج شديدة الموضوعية جملة وتفصيلاً، وخالية تماماً من أي لسة شخصية أو جمالية».

وضع دوكسيادس مخططه عام 1958 مع الحقبة الجمهورية وصعود عبد الكريم قاسم. كان قاسم بحاجة إلى أنصار مستقرين في بغداد وكان «الشروك» (من «الشرق») وهو مصطلح يشار به إلى سكان ميسان والناصرية وبعض أهل البصرة) هو الاسم الأشهر للنازحين في بغداد، وهم الأجدر لهذه المهمة. كان شمال شرق بغداد والرصافة باتجاه محافظة ديالى مكاناً خالياً إلا من أبار نفط ضئيلة المحتوى ومبازل للماء وحقول لزراعة الخضروات تفصلها عن بعضها البعض مسافات شاسعة ووعرة. هذه المنطقة شهدت مشروع إسكان «الشروك» الأكبر الذي أشرفت عليه الشيوعية زِيهة الدليمي، وزيرة البلديات والأشغال في 1959، والذي سُمي لاحقاً بمدينة الثورة أو صنيفة دوكسيادس، الذي وصف نفسه مرة بأنه «مجرم عمراتي».

تدمير الزراعة ونزوح «الشروك»

من أين أتى «الشروك»؟ مع هذا السؤال يُذكر حقيقة مفادها أن عالم الاجتماع العراقي علي الوردي الذي كتب عن المجتمع العراقي الكثير وتوفي مطلع التسعينيات، لم تمر بقلمه يوماً كلمة مدينة «الثورة» يرغم أنه كتب عن نزوح الريفي إلى المدينة مراراً. في الحقيقة يعود نزوح سكان أهوار ميسان والناصرية إلى العاصمة بغداد إلى مشروع سد الكوت الإروالي والذي أشرفت عليه الشركات البريطانية وتم افتتاحه عام 1939. قام السد، الذي وفر ماء الري والكهرباء لمحافظة واسط، بحجب الطمي اللازم لزراعة الرز عن حوض الغراف والأهوار. بدأ مزارعو المناطق المنخفضة بالهجرة نحو بغداد سعياً لإيجاد مصدر للرزق، وتجمعا على هامش الحدود الإدارية للبعثاد في الكرخ والرصافة في الأريغينيات والخسينيات ومطلع الستينيات، عبر بناء بيوت طينية مدعمة بعلب القصدير لتبدأ قصة «الشروك» في بغداد مذكاً.

الفلاحون – الجنود

بقيت مدينة «الثورة» منذ اكتمال توزيعها على النازحين «الشروك»

15 |

شهادة الشاعر المصري عمر حاذق عن المعتقل: «حاول مرة تبطل هersh»!. وعن موت منظمة أوبك، وفي «فكرة»: ستريت آر٢، رسائل على جدران مدن عربية.

لمأذا «يهاجر» الشباب التونسي إلى «داعش»، استنتاجات الأبحاث الميدانية والتحليل. وفي ظاهرة الطفيلي المنحل صفة صحفي: نموذج من المغرب. وفي «بيتونة» عيد ميلاد تغيير لا يأتي.

تفسير الاستفتاء المغربي: مفاتيح الاستقرار. وفي بألف كلمة صور من مؤس العراق اليوم. وعلى الموقع: آفاق المقابلة الفلسطينية الاقتصادية لإسرائيل، وتطوير المناهج في مصر، والرياضة النسوية في العراق.



ملاك الشاذلي - مصر

وعلى عدد لا بأس به من الأكراد القليلين الشيعة، أواسط الستينيات وحتى مطلع الثمانينيات من دون إسفلت. كانت الشوارع الطينية ومشاريع الصرف غير المنتهية بالإضافة إلى المبازل القديمة تجعل الحياة صعبة وجاهرة للليليان والتفجر دائماً، خصوصاً أن أغلب سكان المدينة كانوا يميلون للشيوعيين المنكسرين آنذاك. جاء صدام حسين، الصاعد إلى السلطة بانقلاب أبيض أقمته أنهار من الدماء، بالإسفلت إلى المدينة واكتشف أن الطريقة الوحيدة للسيطرة على سكانها تأتي بحشرهم في معركة مع النظام الإيراني. بدأت الأمور بتغيير اسم المدينة إلى «مدينة صدام»، ومن ثم زيادة عدد أفرع حزب البعث فيها، وتأسيس مديرتين الأمن الذي كان قد اكتسب سمعة رهيبة آنذاك: مديرية أمن في منطقة البلديات شرقاً، وأخرى في منطقة الطالبية جنوباً، مع معسكرات للجيـش في الشمال والشمال الغربي، ليحاصر المدينة أمنياً وعسكرياً بشكل كامل. بدأ سؤق الشيوعيين المزمومين والمواطنين الأميين إلى المعركة تحت مسمى «الجيش الشعبي» بالإضافة إلى استيعاب الجيل الجديد في الجيش العراقي، لتحل محل هذه المدينة الفاتورة الأكبر في حرب السنوات الثماني.

وعلى الرغم من قسوة تلك السنوات، إلا أن مدينة الثورة ازدادت زخماً سكانياً فتضاعف عدد أهلها خمس مرات في خمسة عقود. وعلى الرغم من قطع القماش السوداء التي كان يُخط عليها باللون الأبيض نعي شهداء الحرب، وبقيت لمحةً ثابتاً من ملامح المدينة، وخصوصاً في ساحة مظفر (يعود اسم الساحة إلى اسم طبيب أخطأ في تشخيص أحد مرضاه إضطر إلى مغادرة العراق)، حيث الشارع الذي يقسم الأحياء إلى قسمين.. إلا أنها قدمت غالبية المطربين والملاحين والعازفين ومثلي الدراما والمسرح ولأغبي كرة القدم وشعراء الفصحى والعامية، وكانت اليد العاملة التي تضج ببغداد بنشاطها يومياً تندفع من الأزقة هذا الكائتون.

في مطلع الثمانينيات كذلك، بدأ التغيير الإيديولوجي يتضح شيئاً فشيئاً في مدينة الثورة، باتت ملابس النساء أكثر تقليدية والجوامع أصبحت رموزاً لمعارضة النظام. آل البرقع وهي عائلة من الأشراف، كانوا يمثلون حزب الدعوة عبر جامع هم أمة الجماعة فيه، دخلوا في مواجهة مباشرة مع النظام الذي أعدم العشرات منهم في وقت قصير، وتم استعراض جثثهم في شوارع المدينة مما ترك أثراً عميقاً لدى السكان.

كان الموت بهذا الشكل هو النمط الذي جذب مدينة النازحين نحو الإسلام السياسي حتى باتت قلعة من قلاعهم.

كانت الأحزاب الإسلامية تنمو في أحشاء المدينة التي تنقسم على نفسها كثيراً، البيوت أصبحت أنصاف وأرباع بيوت والعوائل تزداد، انفجار سكاني تضخمته معه هواجس الإقصاء والقع من قبل السلطة.

تفجرت الأمور عام 1991 مع انتفاضة آذار/ مارس إثر الهزيمة في الكويت،

## التميز كأداة للتسلط والإخضاع

العمل حيث يشكل المواطنون غالبية العاملين في القطاع الحكومي بينما يشكل الوافدون غالبية العاملين في القطاع الخاص. ويترافق هذا المزج مع فروق واضحة بين الفئتين في الأجور والامتيازات الوظيفية بما فيها الاستقرار الوظيفي. يشكل العزل في مناطق السكن مطعراً آخر لليوس في جميع بلدان المنطقة. فقد أسهمت خصائص العمالة الهاجرة والشروط المقدة التي تفرضها السلطات لرحمان المهاجرين الفقراء من إمكانية «جمع الشمل مع عوائلهم» في انتشار ما يعرف بمناطق «سكن العزاب». وهذه تفاوتت بين «معسكرات العمل» الضخمة بجوار مناطق صناعية نائية أو الأحياء القديمة في المسكن الآيلة للسقوط التي هجرها المواطنون ولم تعد غالبيتها صالحة للسكن الآدمي. وفي الحالنتن، تزداد العزلة والفروق بين فئتي المواطن والوafd. ففي معسكرات سكن العمال المسورة، يتمكن أصحاب العمل من عزل ملايين العمال عن طريق التحكم في توفير الخدمات الضرورية بما فيها المواصلات. أما الوافدون الآخرون ممن يعيشون في الأحياء القديمة في المدن الخليجية وأطرافها، فهم معرضون للمهاجمات من قبل قوى الأمن وللاذلال تحت تبرير «تورطهم في المشاكل والجرائم»، ولا تخلو الصحف الخليجية من شكاوى المواطنين مما يعتبرونه تجاوزات الوافدين، بما فيها «تجمعاتهم الريبة أمام منازلهم مساء أيام العطل وممارساتهم لعاداتهم الغربية وانتعاج الروائح من منازلهم»!

مجاز مالكولم إكس

في ستينيات القرن الماضي، أعاد مالكولم إكس، الناضل الأميركي الراحل، التذكير بالفروق بين عبيد المنزل وعبيد الحقل. كان مالك العبيد يفرق بين فئتين، الأولى هي فئة عبيد المنزل التي ينتقيها خدمته شخصياً ويساعده في إدارة ممتلكاته وشؤون مزارعه وقصوره. أما الفئة الثانية فهي فئة عبيد الحقل التي يُفرض عليها العمل في مختلف المدن والأعمال المهجدة الأخرى. يلخص المجاز الذي يستخدمه مالكولم إكس وصف حالة إنسانية تتولد عن ممارسة السلطة التي تتحكم فعلاً في حياة الخاضعين لها، وهي حالة تساهم في تفسير قدرة أصحاب السلطة، في أي مجتمع، على ضمان استمرار سلطتهم، عن طريق توليد وإدامة تراتبية هرمية تتمتع كل مرتبة أعلى فيها بميزات

### العراق، عام آخر..

مر ثلاثة عشر عاماً، ليست المسألة في عدّ السنين ولا في الاحتفال الرمزي بها، بل هي مجرد مناسبة لمقاومة الذاكرة اللحظية التي طغت وبسادت، والتي توظّف في المساعدة على قطع الطريق على التعامل مع الرداءة وعلى تلمس كيفيات الخروج من دائرتها. ننسى أن استهداف العراق وقع لأنه المكان الذي يجمع الدينامية البشرية والإمكانات الاقتصادية معاً، بكل تداخلهما وتشعبهما، ولأنه في موقع جغرافي مركزي من مجمل المنطقة، بما يتجاوز العالم العربي نفسه. وما استهدف هو الإمكان وليس الواقع المباشر. بل إن هذا الأخير سهل الاستهداف، ما يطرّف بامتياز الصلة بين المحلي والعالمي: لولا الديكتاتورية والاستبداد لما أمكن لمخطط إسرائيلي أو إمبريالي أو أيا كان اسمه أن يفعل فعله ولا أن ينجح. وهذا يُخرَج «المخطط» من دائرة التأمير ليضعه من جديد في مكانه الصحيح: كل طرف يسعى إلى مصالحه ويخطط لها، وهذا هو الأمر الطبيعي. ولنبدأ من هنا وليس من سواء. فهذا ما يتيح بلورة مفهوم المصلحة العامة وربطه بفكرة الحكم، ومعهما بالوطنية. بديهيات؟ كل ما يمارس في منطقتنا يعاكسها، ويزدهيا ويذهب إلى أشكال من الإنابة عن الناس، بالوقّة أو بالأبوية السمجة، وإلى أشكال من الغناهم وتعطيلهم عن الشأن العام.

ضربة العراق تلك في 2003 لم تكن الأولى به ولا الأخيرة. فمذك استبيح البلد، بداية مع القصل الأميركي بريمر، ثم مع أتباعه المحليين وبعد ذلك مع كل من يخاطر بباله الطمع بالبلد المستباح. وعلى الرغم من ذلك، يقاوم العراقيون الذين أنهكتهم الحروب المهولة المتوالية والاستبداد اللديد، ورأوا أمام أعينهم النهب والانتحطاط يغلفان كل شيء. تجاوزوا القتاتل وفق الانقسام الذهبي وما زال التضامن الاجتماعي اليومي، الفردي والجماعي، يمثل درعاً حامياً لهم، وما زالت أغليتهم الساحقة تفخر ببلاد الرفادين وتعتدّ بعبوية جامعه. هم يقاومون بما يملكون من أدوات على الرغم من أنها باتت قليلة ضعيفة، وعلى الرغم من وهنهم بسبب شدة ظروفهم البائسة. يكفي أن نرى تبلور المطالب العامة، والاستمرار في التحرك العام. لعل لحظة الإنجاز لم تحن بعد. لا بأس، هي ما زالت حاضرة يسعى إليها. وهذا «الاحتمال» هو الثمين.

نهلة الشهال

# قضية

# «حاول مرة تبطل هرش» - شهادة

حاول مرة تبطل هرش/ لا مقدرش. لا مقدرش. لا مقدرش/ طب جرب تغسل مرة الفرش/ لا مقدرش، لا مقدرش..

كنتُ عائداً من جلسة «استشكال» على الحكم الصادر ضدي، تمّ رفضه، مقيداً مع إسلام حسنين في قيد واحد.
عربة الترحيلات قدرة مكتنظة بالسجنا، كنا، لحسن حقلنا في تشرين الأول/ أكتوبر 2014، متجاوزين قبض الصيف الذي تواطأ مع الكندس للفتك بجلودنا طيلة الصيف. كانت ترحيلة سجن برج العرب كبيرة ذات عربات كثيرة، لا تتحرك عادة من الحكمة إلى السجن إلا معاً، لأن قوة التأمين لا تتجزأ بين عربات الترحيلة. هذا معناه الانتظار، حتى تنتهي جلسات السجناء جميعاً.

العودة إلى السجن مضمّنية دوماً. يهتف بعض السجناء في ترحيلة السياسيين هتافات مؤيدة لرسى، فيعمد السائق فور خروجه للطريق الساحلي، الخاوي تقريباً، إلى أن يفود بسرعة ثم «يفرمل» فجأة، فيسقط بعضنا على بعض ونرتج ارتجاجاً شديداً. ثم يكرر السائق ثنائيات الانطلاق – الفرملة حتى أعود إلى زنزانتى كائني خارج من «خراط». سائقون نادرون لم يعاقبونا على تلك العتافات الكريمة التي لا تسمعهما إلا الصحارى وصباراتها القليلة.

في تلك الترحيلة، تحركت العربة التي كانت مكتظة بالشباب، فإذا بأحدهم يهتف بإيقاع سريع «حاول مرة تبطل هرش»، فيجيب الزملاء بصوت واحد «لا مقدرش لا مقدرش»، ويكررون ذلك «الإنشاد» مع «كوليلها»، أخرى بالإيقاع والأداء ذاتهما.. وهم «الإسكندراية» يا عزيزي!

كنت مرهقاً للغاية، منهئياً لدوامة «الخراط»، فإذا بي أضحك وأندهش، ويمسّتي الشعر مسأً طيفاً.. ومزّت الترحيلة.
الهرش أو الحساسية اسمان لطيفان ذاثمان بين السجناء، معناها واحد: «الجرب». لن تسمع لفظ «الجرب» بين السجناء، رغم أنهم يتبادلون مراهمه وغسولاته التي يكتب في نشراتها كلها أنها للجرب وليس للحساسية!

«واحد بالك من فلان؟»، «ماله؟»، «ها يقطع نفسه من الهرش، طب مش واحد بالك من الهرش اللي داير في نص الأوضة ده؟». «لا، أنا مركز في كتابة روايتي يا عم». «الأوضة» هي اسم لطيف آخر للزنزانة. «على فكرة فلان ورائي ضهره.. يالاه! ده جرب يا عمر». ركزت تفكيري في الرواية لأن نطاق الهرش كان يتسع في الضلع المقابل من الزنزانة، يقرباً مني.

بعدها بأيام، كنت أكتب بعد الفجر، فسعدت شابياً يتهامسون قربي بسؤال جوهري: من الزميل الذي نقل «ال باللا» للزنزانة؟ كنت قد بدأت أكتسب مهارات السجن التي يكتسبها السجنين دون وعي، كالتقاط الإشارات والرموز والأصوات البعيدة لأننا نظل محبوسين طويلاً، معزولين، مترقبين الكوارث والتفتيشات والضرب، خاصة في 2015.. أظهر لي الشباب التهامسون بحيثُ أن الحديث ليس سراً عني، فاقتربت منهم لأعرف ذلك الزميل المشؤوم.

كلمة «ال باللا» بديل لطيف آخر لأية كلمة قبيحة أو مقرفة لا يحب الشباب نطقها، وعليك أن تلتقط المعنى المقصود. تتكون الكلمة من المقطع الأول من العبارة العامية «باللا بينا»، مسبقوا بالآلف واللام، إنه الجرب هنا، لقطئها مجهوراً. عرفتُ كيف لاحظوا فلاناً هذا وهو يتهرش خلسة، ويحاول متلطفأ أخذ المرحم إلى الحمام دون أن تنتبه عين من أزواج العيون الكثيرة المكدسة في الزنزانة.. وكيف لاحظوا تكرار استناده لدخول الحمام في غير دوره لأنه «تعبان» مع أنه لا يلبث في الحمام إلا دقيقة. يبدأ الجرب بحكة شديدة بين السابقين غالباً أو في أي مفاصل أخرى، ثم ينتشر في الجسد.

الرجل «تعبان» من الهرش، ولا يمكنه إيجانه أماناً! لاحظت بعد ذلك أنه استأنن مرة لدخول الحمام في غير دوره، وقف ينتظر وينادي زميلنا الذي كان بالداخل، ثم بدا يحرك ساقيه مضطرباً. هذا الرجل يمدّ يه الهرش تعدياً؛ بدأ الأمر يربعني. أرسلتُ رسالة عاجلة لأستري طالباً أدوية مختلفة لعلاج الجرب والوقاية منه فأحضرها، كان ذلك في ربيع 2014، قبل التضييق في إدخال الأدوية.

يعدي الجرب بسهولة، سببه الرئيسي ضعف التعرض للشمس وسوء التهوية والتكدس، فإذا أهمل بعضنا نظافتهم أصابعهم وعذى غيرهم، في صورة بقع أو حبوب حمراء تختلف أحجامها وألوانها. حين يظف فينشر وبائياً لا ينجو منه أحد. في صيف 2015، رغم منع الأدوية، كان الوضع أفضل لأننا اكتسبنا خبرة قاسية في الوقاية منه بالاستحمام الدائم بصابون طبي مصنوع من الكبريت، إدخاله أسهل من الأدوية، كما أصبحنا لا نخجل من تنبئ أي زميل نلاحظ أنه يهرش، ومن مساعدته طيباً، خفيّة.

أعود إلى منتصف أيار/ مايو 2014، حيث تمّ نقلي إلى زنزانة أخرى،



ماحي بنين – المغرب

وكان الجرب يفتك بعنابر السياسيين كلها. عرفنا من زيارات الأهالي أن الجرب منتشر في سجون أخرى. بدأت دائرة الإصابة تقترب مني كثيراً، وأنا متمترس بالأدوية وصابون الكبريت، الليلة الأولى في الزنزانة الجديدة كانت عادية. في الليلة التالية، بدل جاري مكانه مع زميل آخر. نمت باكراً على غير عادتي، صحت على شيء يحك بذراعي صاعداً هابطاً مثل منشار، إنه جاري الجديد، دس يده داخل ملابسه هارشا بين ساقيه بغل ذفين مع أنه نائم! أي الصطباحة هذه يا ربي!! فهمت سر هذا التبديل المريب. أراد الجار السابق لهذا المصاب بالجرب أن يتخلص من جيرته فأقنع جاري السليم بأن يبدل مكانه مع المصاب، بحيث يجاورني أنا المصاب وينتقل جاري السليم إلى مجاورته، ذلك الخمسيني اللئيم.

صار الأمر كابوساً، بدأت شخصيتي تتغير، وازداد تغيرها مع أيام السجن.. قلّ خلجي وزادت جرأتي على الناس. حدثت جاري الجديد عما رأيته منه. حدثت زملاء آخرين ورتبنا إعادته إلى «مزرته» القديمة (أي المساحة المخصصة للسجين، حيث يفرش بطانيته). كان لا بد من كسر خلجي كي لا أضيع. بدأت أسبح لنفسي بأحراج الناس ومطالبتهم، كما أصبحتا بصحتهم، أكثر السجناء السياسيين قراء مسحوقون، مقبوض عليهم ضمن قضايا الإخوان التي تقع غالباً بمناطق شعبية أو ريفية، بمن في ذلك المقبوض عليهم خطأ من محيط



المظاهرات. هؤلاء لا يملكون رفاهية العناية بصحتهم، وذلك يدفع الجرب دفعا في أجسادنا.

### عمر حاذق

شاعر من مصر، أمضى سنتين في الاعتقال وخرج بعفو رئاسي في أيلول/سبتمبر الثالث شمل 100 معتقل

*يقول بيان لحركة 6 ابريل عند اعتقاله: «في يوم 2 ديسمبر 2013 عُقدت في الإسكندرية جلسة لمحاكمة قاتلة خالد سعيد، شهيد اجرام نظام مبارك وأيقونة الثورة، ووقف عدد من شباب الثورة أمام المحكمة يحملون لافتات تطالب بالقصاص من قاتلة خالد سعيد. فجأة راح ضابط يضرب أحد المتظاهرين بوحشية، فحاول زميل له أن يدافع عنه، فما كان من الضابط إلا أن قبض على الاثنين، وهنا تقدم عمر حاذق من الضابط وسأله: «ماذا فعل زملاني لتضريحهم وتقبيض عليهم؟». اعتبر الضابط هذا السؤال انتقاصاً من هيئته التي لا تتحقق، في اعتقاده، إلا بإذلال المواطنين فقبيض على عمر حاذق وتمت إحالته إلى نيابة أمن الدولة بالتهم الآتية: «تخريب المنشآت، وتطعيم سيارات الشرطة، والاعتداء على الجنود والضباط، والاتلاف للممتلكات العامة، ومقاومة السلطات، والتظاهر دون ترخيص، وتكدير الأمن العام».*

## فكرة

## الفنون المدنية:

## رسائل على جدران مدن عربية

رجل مصري بجلابية وحطة يقف على شرفة عالية مطلةً على منشية ناصر بالقاهرة، أرض «الزبالين» كما يسمونها. تحرق البنايات الترابية المكدسة ألوان الأبيض والأصفر والأزرق، مشكّلة قرصاً كبيراً، شمساً تغيب أو تشرق أو تستقر مكانها على أرض الناس المكافحين، كما يحلو للرائي. قرص الشمس هذا الذي يتمدّد على جدران بنايات «الزرايب» عبارة عن غرافيتي ضخم للفنان التونسي السيد، بعنوان «إدراك».

«السيد صنع Urban Art في مصر، الأهم من ده إنه عمله بماله الخاص، بدون منظمات، بدون مؤسسات ترعى وشركات تموّل عشان تحشر لوجوهاها عالشغل، يعني نزل مصر على حسابه مره واتنين وثلاثة عشان بس يتفق مع سكان مجتمع منشبة ناصر. تخيلوا بقى لو فنانينا العظام اللي بيبيعوا لوحاتهم بالشئء والشويات، قدموا حلول ونفذوها هيصحل إيهم».. هكذا كتب الفنان المصري عمار أبو بكر على صفحته على فايسبوك، شاملاً نفسه مع الفنانين المقصرين في هذا النوع من العمل الاجتماعي الذي وصفه بـ «الفن الديني».

في صنعاء كذلك، رسمٌ متواصل على ما تبقى من المدينة. رسم مراد سبيع سابقاً على ركام المدينة مشروعه «حطام». صارت المباني المدمرة جزئياً دفتراً مفتوحاً له، وحولها إلى رسائل مضادة للحرب، نال بعدها جائزة «الفن من أجل السلام». عاد سبيع في 16 آذار/ مارس الحالي ليحتل الشارع، ودعا معه ناس المدينة للمشاركة في الرسم على جدران شارع الرباط في صنعاء، فقدم منهم رجال ونساء وأطفال وكبار. لا يعود مهماً هنا «جودة» العمل الفني بالمعنى التقني، لكن أن يستعيد سكان المدينة سيطرتهم على جزء من الحيز العماري الذي يشغلونه، أن يكون لهم حق ترك أثر ما عليه، وأن ينقل هذا الأثر أ ملهم يمين بلا حرب.

هذه الفنون التي تجاهلت الوسائط الكلاسيكية، يصنعها شباب يعتبرون المدينة مساحة ضرورية للعمل وعرض الأفكار، يرونها ستوديو كبيراً. أهمية الفن الديني تكمن أولاً في كونه (غالباً) غارقاً في الهم الاجتماعي والسياسي. وفي كونه ثانياً يقدم رؤية مختلفة لدور الفنون واستعمال الحيز. عليك أن تركب أفكارك مع المدينة أولاً، ثم أن تعيد تركيب العمل (ربما مع فنان جديد) فوق العمل الأول الزائل أو المتغير، وربما بتقنيات أخرى، ودائماً بنظرة مختلفة. تتراكم طبقات المدينة ويغير بعضها البعض.

لا يكثرث من يرسم على حائط بلإمكانية أن يأتي أحدهم ليخرب عمله أو يعدله لاحقاً. الفن هنا سريع الزوال نسبياً، يعبر المدينة عبوراً سريعاً كما تفعل نحن حين نرم من مكان العمل إلى مكان السكن.. فن المدن يخترع أساليب لتطويق الأسطح المدنية العامة في خدمة الفكرة البصرية، صار مع الوقت جزءاً من الهوية البصرية لمدن عالمية كبرى وحركة فنية معترف بها، ويزداد تقبلها في العالم العربي، خصوصاً بعد أعوام الثورات المتقلبة التي احتاجت الجدران لتقول قولها.

في فلسطين، المثال الأملل لأهمية هكذا أعمال. جدار الفصل العنصري صار لوحاً ضخماً. كل ما عليه يمثل احتجاجاً سياسياً سمته الأساسية أنه «صارخ» بصمته. الرسومات الكبيرة تحنّج طالماً أنها موجودة على الجدار، باستمرار والحاج. إذا كان ثمة من يحاصر الناس، فإن الناس وجدوا طريقة لتفكيك دور أداة الحصار. لا أحد يدعى أن الرسم على حائط انتصار على الحادث، لكنه يؤدي وظيفة مقاومة مغايرة للدور الذي رسم له، بحيث بات يقصده فنانو غرافيتي من كل العالم، وأبرزهم كان بانكسي.. بتنا أمام مفردات بصرية جديدة تعيد استخدام العناصر المبينة، وتعيد تقييم دور الفن، تخرجه من المتاحف الأظمر الجامدة إلى الشارع والحركة، ومن النخبوي إلى الشعبي، ومن التزيين إلى الموقف السياسي والاجتماعي.

لوحة السيد تقول: «إن أراد أحدكم أن يبصر نور الشمس، فإن عليه أن يمسح عينيه»، وهكذا إن أردنا أن نرى مدنتنا بأعين مختلفة.

### صباح جلول

يتضح من هذا الاستعراض أنّ أوبك برزت إلى الوجود كرد فعل على

سيطرة الشركات الأجنبية على الصناعة النفطية من دون أن يكون للمنتجين دور حتى في تحديد السعر الذي يبيعون به نفطهم. وبقيت المنظمة قابعة خلف المسرح 13 عاماً حتى توفرت تلك اللحظة المناسبة حيث تقاطعت التطورات السياسية في منطقة الشرق الأوسط مع تصاعد في الطلب وضعف في الإمدادات، ما دفعها إلى مقدمة المسرح الدولي. ذلك كان العقد الذهبي لأوبك الذي استمر حتى مطلع الثمانينيات، لتعقبه دورة تراجع وضعت إمكانية المنظمة ككارتل قادر على ضبط السوق على المحك، وهو الإمتحان الذي لم تنجح فيه، واتجهت للتركيز على زيادة نصيبها في السوق وساعد على ذلك نمو الطلب منذ بداية الألفية الجديدة بيزوغ الصين والسوق الآسيوية عموماً ونموها الاقتصادي وبالتالي حاجتها إلى المزيد من النفط.

ومع دخول لاعبين مهمين إلى السوق في جانب الإمدادات، مثل روسيا وأميركا بتقنية جديدة لإستخراج النفط الصخري على حساب النفط التقليدي، فإن وضعية أوبك الضعيفة أصلاً تعاني عملياً، بدليل أنها عندما تريد إحداث أثر في السوق فلا بد لها من التوافق مع دولة مثل روسيا، وهو امتداد لسجل سابق تلخص في عدم قدرة أوبك كمنظمة على التأثير في أي من المجالين الرئيسيين وهما الإنتاج أو الأسعار. فقرارات مثل لعب دور المنتج المرحج أو التخلي عن السعر الرسمي أو زيادة الحصص في السوق اتخذتها دول منفردة مثل السعودية، وتلخصت مهمة أوبك في دور الكومبارس المساند الذي يتبنى قرارات اتخذت من قبل، خاصة أن المتابع السياسية والحظر الاقتصادي الذي تعرض له كل من العراق وإيران، وهما دولتان مؤسستان لأوبك وتتمتعان باحتياطيات نفطية ضخمة، أضعف من قدرتهما على لعب دور مؤثر في تسيير شؤون المنظمة. بل إن فشل المنظمة ووصل إلى عدم قدرتها على انتخاب أمين عام جديد خلفاً لعبد الله البدري الذي استنفذ فترتيه المقرتين، لكن بسبب عدم التوافق على من يخلفه، فإنه يتم التجديد له كل مرة، وهي العملية المستمرة لنحو ثلاثة أعوام حتى الآن.

### السر سيد أحمد

كاتب صحافي من السودان مختصٌ بقضايا النفط

### شهر العسل القصير

وتعبيراً عن هذا الاختلاف، برزت في أواخر السبعينيات من القرن الفائت مفازة سريعة. وقتها كانت السوق في حالة صعود، وأوبك ترفع أسعارها عقب كل اجتماع، الأمر الذي أثار الرياض فكانت تبيع نفطها بسعر يقل دولارين عن السعر الذي تقرره أوبك، وذلك لكيح جماح تصاعد الأسعار. ولما لم تؤد تلك الخطوة إلى التتيحة المرغوبة، خططت السعودية لإحداث فائض نظفي في مطلع الثمانينيات وإنتاج عشرة ملايين برميل يومياً لتفرض على الآخرين وقف مباداة رفع السعر وتوحيده. لكن شهر عسل توحيد السعر لم يستمر طويلاً إذ تصاعدت الإمدادات النفطية من خارج أوبك مما أدى إلى اتساع الفجوة بين سعر أوبك الرسمي وسعر السوق الحرة، الأمر الذي فرض على المنظمة الاجتماع الرسمي في 1982 لتحديد سقف إنتاجي في حدود 18 مليون برميل يومياً، وذلك في محاولة للعب دور الكارتل الذي يقيد الإمدادات لدعم الأسعار. لكن الوضع لم يتحسن كثيراً، مما اضطر أوبك إلى القيام بالخطوة التالية وهي تحديد حصة لكل دولة عضو على أن تخصص خمسة ملايين برميل يومياً للسعودية بصفتها المنتج المرحج الذي يرتفع إنتاجه ويخفضه حسب احتياجات السوق.

وبما أن الطلب كان ضعيفاً والدول الأعضاء لا تتقيد بخصصها الرسمية، وتنتج كميات إضافية للتعويض عن ضعف الأسعار، فقد وجدت الرياض إنتاجها يتراجع إلى مستويات تقل عما تنتجه بريطانيا من بحر الشمال مثلاً. فكان أن تخلت عن السعر الرسمي واعتمدت صيغة تسويقية مغرية للمشتريين لتغطيها عملي الشنح والتأمين مع هامش ربحي للمصافي، وهي الخطوة التي أدت إلى اشتعال حرب الأسعار في منتصف الثمانينيات. وبتلك الخطوة، لم تستعد الرياض حصتها في السوق فقط، وإنما تخلت عن السعر الرسمي لأوبك وتخلت كذلك عن دور المنتج المرحّج وأصبحت تلك المسؤولية من نصيب دول الأوبك مجتمعة، التي قامت باعتماد استراتيجية جديدة تركز على استعادة نصيبها في السوق وزيادته بدلاً من الاهتمام بالأسعار. وبالفعل تصاعدت تلك الحصة من 18 مليون برميل يومياً وقتها إلى أكثر من 30 مليوناً في الوقت الحالي، لكنها لا تزال تمثل نحو ثلث احتياجات المستهلكين.

## لماذا «يهاجر» الشباب التونسي إلى «داعش»؟



نور زنتة - سوريا

توالى التحليلات والتساؤلات بعد أحداث بن قردان الأخيرة، التي حاول «داعش» احتلالها، لفهم المشاركة الكبيرة لشبان صغار في السن في عملية الهجوم على المقرّ الأئمني والعسكرية، بغية تأسيس إمارة داعشية في مدينة حدودية عرفت أنها «مدينة العاشق» بامتياز، فلا يعول سكانها على الدولة التي أسقطتهم عمداً من مخططات التنمية، بل صنعوا لأنفسهم «اقتصادهم التحتي» القائم على التهريب والتجارة الموازية أو «تجارة الخط». وقد حاولت بعض الخطابات التقليل من أهمية عامل الفقر، بيّنة الفقر على حقيقة مفزعة مفادها أن 25 في المئة من التونسيين يعيشون تحت خط الفقر، بالإضافة إلى وجود 700 ألف عاطل من العمل، أغلبهم من الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و35 سنة، إضافة إلى الانقطاع المبكر عن الدراسة لحوالي 120 ألف تلميذ سنوياً، وانتشار الاقتصاد الموازي أو اللانظامي الذي يمثل 40 بالمئة من الاقتصاد التونسي، وكذلك انتشار ظواهر الانتحار لدى الأطفال والمراهقين إلخ.. وتهدف خطابات التقليل من أهمية الجوانب الاقتصادية في فهم ظاهرة انخراط الشبان التونسيين في الحركات «الجهادية» إلى إخفاء مسؤولية السياسات الاقتصادية النيوليبرالية التي اتبعتها الدولة منذ ثمانينيات القرن الفائت في تآكل الروابط الاجتماعية، وإضعاف الطبقات المتوسطة والفقيرة، الفاعلة مجموعات صغيرة من رجال الأعمال والمافيات الجديدة التي اغتنت بفعل العلاقات الزبائنية مع السلطة واستغلال النفوذ، والاستفادة من شبكات الفساد المالي والإداري. الفقر هنا ليس مفهوماً مجرداً، بل تجربة ذاتية واحساس مؤلم يعيشه أفراد يشعرون بالامساواة والاستبعاد وغياب الاعتراف، وأن حظوظهم في النجاح ضئيلة، ليصبح حينها الخلاص فردياً يذهب إلى خيارات قصوى، عنيفة ومدمرة.

### 5 آلاف مقاتل في «داعش»

تشير التقارير، رسمية وغير رسمية، إلى أن نسبة الشبان التونسيين الذين يلتحقون بتنظيم «الدولة الإسلامية» («داعش») هي الأعلى مقارنة بجنسيات أخرى، حيث يقدر عددهم بحوالي خمسة آلاف مقاتل، وهو رقم هائل قياساً بعدد سكان البلاد الذي لا يتجاوز 11 مليوناً. وتقول وزارة الداخلية التونسية إنها منعت حوالي 15 ألف شاب تونسي من السفر إلى سوريا عبر تركيا من أجل الانضمام إلى «داعش». وتأتي أخبار بين الحين والآخر مفادها أن بعضاً من شبان مناطق الجنوب التونسي قد اختفوا ليتبين في ما بعد أنهم انضموا «هجرة سرية»، إلى تنظيم داعش في ليبيا عبر المسالك الصحراوية الوعرة، يتسهل من بعض الهريين الذين باتت تجمعهم بهم تحالفات. وتشير تقارير أخرى إلى أن مدينة بيزرت الموجودة في أقصى الشمال التونسي ومدينة بقردان الجنوبية الملاصقة للبحر الليبي هما أكثر المدن التونسية «تصديراً» للشباب نحو سوريا وليبيا، كما تبين أن معظم الذين قتلوا في الغارة الأميركية على مقر تنظيم «داعش» في مدينة صبراتة الليبية هم شبان تونسيون، وتتراوح أعمار هؤلاء بين 18 و35 سنة، أي أن جهم ولد في أواخر ثمانينيات القرن الماضي والتسعينيات منه، وهذا ما بيّنته أيضاً أحداث الهجوم الداعشي على مدينة بن قردان حيث الشبان المشاركون في الهجوم تونسيون عاشون من سوريا والعراق.

لماذا تحتل تونس، البلد الصغير من حيث المساحة وعدد السكان، الرتبة المتقدمة في عدد المقاتلين في صفوف هذا التنظيم؟ كيف يتحول بعد سنتين سنة من الاستقلال عدد كبير من شباب تونس، التي بدأت حينذاك تجربة مشروع تحديتي في المنطقة العربية، إلى قتلة في صفوف «داعش»؟

### فضاءات الإقصاء الحضري

أماكن السلفيين المفضلة للدعوة («الجهاد») ليست الأحياء المترفة، بل لا يمكن ملاحظة انتشارهم ومجالات تحركهم اليومي إلا في الأحياء الشعبية المحيطة بالمدن (حي «دوار هبشر»، وحي «التضامن» بتونس العاصمة، تعتبر «حصوناً» للسلفيين بشقيهم الجهادي والعلمي). الأحياء تلك، بوصفها «فضاءات مغمشة» و«أمكنة للإقصاء»، ظهرت ضمن مسار تحضر انتقالي سبق عملية التصنيع التي كانت في الغالب مجرد محاولات لنقل التكنولوجيا واكتفاء ببعض الصناعات التحويلية، وهو ارتبط بالزواج الريفي المتولد عن إفقار الأرياف بفعل ذلك التحديث الذي شهدته تونس منذ الاستعمار حتى الاستقلال وبناء الدولة الوطنية الحديثة، ما أدى إلى «تريفيد المدن»، التي ستتشكل على أطرافها تجمعات سكنية عقوبة جل سكانها نازحون من الريف

أقصتهم سياسات الدولة السكنية ومنطق المضاربات العقارية عن الاندماج الكامل في الحياة الحضرية، ما سيقاوم من المشكلات الاجتماعية العديدة، وستجد تلك الفئات نفسها في ظل الفراغات الاجتماعية» الناتجة من تخلي الدولة مجبرة على تدبير أمرها بنفسها من خلال أطر غير نظامية، تبدأ من الاعتماد على الاقتصاد غير المعيار وصولاً إلى انتماءات تفلت، في كثير من الأحيان، من رقابة المؤسسات، بل إنها تتشكل خارجها وضدها أحياناً (مثل المجموعات الحيطية، شبان الرباب، المجموعات السلفية، فنغدو في تلك الفضاءات القصية إزاء مجموعات شعورية تربط بين أفرادها علاقات شخصية مباشرة باسم الانتماء إلى فكرة مشتركة وفضاء جغرافي مشترك وحب لجمعية رياضية مشتركة، حيث يكون لجماعة الرفاق التأثير الأكبر في عملية صياغة الهوية الفردية، لتتشكل في هذا السياق قبائل شبه حضرية تبرز بين الحين والآخر من تحت قشرة التحديث السطحية المزوجة

32.8 ليترأ في السنة (للمشخص الواحد) معدل استهلاك الإمارات للكحول حسب منظمة الصحة العالمية، وهي النسبة الأعلى بين دول العالم العربي، تليها تونس (26.2 ليترأ في السنة، أعلى من نسب فرنسا وإيطاليا وروسيا). يليها السودان (24.1 ليترأ في السنة) فلبنان (23.9 ليترأ في السنة).

مع صيرورة اللامساواة التي يعرفها المجتمع التونسي منذ ثمانينيات القرن الفائت، والمتخللة خاصة في تآكل شبكة الأمان الاجتماعي وشبكات التضامن المؤسساتي المألوفة والمعنى والتي طالما كانت تشكل دعامة للفرد، إذ صار كل ما كان يعده به بالأمس مؤسسات الكفالة الجماعية يترك أكثر فأكثر للفرد نفسه، الذي يتحمل وحده مصيره الخاص، مثلما يلاحظ ذلك الباحث السوسيولوجي دانيلو مارتوشيلي. وهذا يعني خلق شبكات تضامن بديلة تمكن الشباب من التمتع الاجتماعي وإعادة تشكيل الذات. وفي فضاءات التهميش الاجتماعي، يتشكل وعي جزء من الشباب التونسي الحضري الذي يمتزج لديه الإحساس بالضميم الاجتماعي والاقتصادي مع تأويلات مطابقة لإسلام متطرف.

### أسلمة الراديكالية و «فكرة الهجرة»

في لحظات السخط والخوف والقلق من احتمالات المستقبل والإحباطات المتتالية، يصبح البحث عن ملاذات أمراً مستعجلاً. حينها يتسرب، الخطاب الداعشي، بلغته التبسيطية، عبر وسائل عدة أهمها المسجد و «أولاد الحومة» وفايسبوك والسجن، في غفلة من مؤسسات الدولة ومؤسسات المجتمع وبخاصة المدرسة، والعائلة والأحزاب السياسية، ليؤدج السخط والغضب والشعور بالفشل المتكرر لدى «شباب الهوامش»، مضيافاً عليه معنى دينياً يستند إلى يوتوبيا «الجهاد العالي»، الأمر الذي يدفع شباناً تونسيين كثيرين جهم غادروا المدرسة مبكراً ووجدوا أنفسهم مرميين في الشارع، إلى الانجرار وراء «الخطابات التعبوية» للسلفية الجهادية التي احتلت لفترة عدة مساجد وأضعفتها لسيطرتها، وتحول قادتها «الشبان - الشيوخ» إلى رموز ومرآج لعدة شبان حضريين، السارات الفردية للكثير منهم متقطعة بفعل العمل الهش، يتقلبون بين البطالة والمهن الـ «لا- نظامية»، مثل التهريب والتجارة الموازية ممثلة خاصة في «البيسطات العشوائية»، على أرضفة المدن الكبرى وبيع الحشيش والخمر خلسة، وهي أنشطة استفادت منها كثيراً السلفية الجهادية بوصفها حركة حضرية لتمويل كينها الدعوية التي تبين في ما بعد أنها استقطبت عبرها عدة شبان كانوا يبحثون عن «ملاذ هوياتي» و «أطر انتماء» تعوض تلك المتهاوية التي فقدت فاعليتها وشرعيتها في عيونهم، على غرار العائلة، والمدرسة والدين بصيغته الرسمية.

واللافت للانتباه أنه في اللحظة التي نجحت فيها الحركات الجهادية في استقطاب شبان تونسيين بعضهم من متخرجي الجامعات، تفشل الأحزاب السياسية، وخاصة الأحزاب اليسارية، في الولوج إلى العامش، وإقناع شبانه بـخيارات بديلة حيث لا يزال خطاب اليسار بعيداً عن همومهم وتزال أطره التنظيمية تخضع لمنطق «الانضباط الحزبي» ولا تتصور الشباب إلا بوصفهم ذراعاً سياسية وخبزاً انتخابياً. الصحرة الشبانية، السرية والمغمية، إلى «داعش» هي في وجه من وجوها فشل كبير وفضيحة مدوية لأطر الحزبية والمدنية في تونس التي لم تقدر على تيمنة الفئات الشبانية في مشروع مدني وسلمي، كما أن انتشار تلك الظاهرة يسائل الحركة الطلائية التونسية ذات التاريخ اليساري العريق التي يتراجع دورها داخل الجماعة، وهو أمر متوقع ومفهوم، فالحركة الطلائية تلقت ضربات قاسية في زمن الديكتاتورية، ولحقها خراب كبير بفعل «انتهازية الرفاق».

### فؤاد غريالي

باحث في علم الاجتماع من تونس

## فصل المقال ما بين الصحفي والطفيلي من اتصال

سرواله باللوز وأفخم أنواع التمور والجوز والفتستق.. ويحشو حقيبة فحمة أهدافها له مدير أكبر شركة اتصالات في البلد بما يتبقى من اللحم المشوي وباللداج، والفواكه أحياناً، ويسرق الأكل من أمام الضيوف ولا يترك أكلاً لغيره.

له وجه موميائي مضحك مليك في أن، عيناه غائرتان يقذف منهما شر مستطير. لا يحضر إلا الأنشطة التي تشمل استراحة شاي وحلوى وغذاء دسماً أو عشاء كوكتيل، يحيط عنقه برميلة حريرية مكوّبة بعناية ويرتدي بذلة عصرية أنيقة أهدافها له مسؤول رفيع، وأهمه أنه فنان وأهده لوحة كعربون صداقة ومحبة، طلب من أحد الفنانين المشهورين أن يرسمها والتمس منه ألا يوقعها باسمه، فوضع الماكر اسمه بدل اسم الفنان.

احتال على وزير حاصل على شهادة الدكتوراه ويرى نفسه لا يشق له غبار في عالم الأدب والإبداع والفكر، وأوهمه بأنه سيلمع صورة ما تقوم به وزارته من جليل الأعمال ابتغاء وجه الرب تعالى. صدقه الوزير ومنحه دعماً لطبع مجلته التي لا يراها أحد، ابتلع الطعم بعد أن قدم له نسخاً منها وكذب عليه فقال أنه طبع عدداً خيالياً من النسخ للوصل لكل القراء.

يخيف المخادع الوزراء وزعماء الأحزاب المتصقن بكراسيهم لربع قرن أو يزيد، يربع التجار والمنتجرات بالعمل الجمعي والدفاع عن حقوق المرأة والطفولة وذوي الاحتياجات الخاصة والمتألمين من العرق والقبيلة.. يأمل «الناضلون» الدافقون عن أنفسهم ألا يحضر ندواتهم الصحافية التي تقام لتبرير صرفهم لمنح المال العام والهيئات الخارجية، وتصطك أسنانهم عندما يرفع الطفيلي يده طالباً طرح سؤال السبب؛ إنه متمكن من جميع المعلومات الخطيرة عن النقابات والأحزاب والجمعيات غير الزهينة، وله مدارك متينة بخصوص الخروقات التي ارتكبتها مجموعات سكنية عقوبة جل سكانها نازحون من الريف

أضحت مهنة الصحافة في الغرب مهنة من لا مهنة له، واستغل رهنم من الطفيليين ثغرة في قانون الصحافة والنشر، مفادها أن بإمكان أي كائن كان أن يكون ناشراً، وأسسوا جرائد تطبع مرة في السنة، أو في الأعياد والاحتفالات، وأصدروا بطاقات تحمل خطأ أخضر وآخر أحمر، واستغلوا سلطة صاحبة الجلالة التي يخشاها بعض المسؤولين الفاسدين أو بعض الباحثين عن بلنم صورتهم الفقيحة، أو بعض المنتخبين من ناهي المال العام، وشرعوا في ابتزاز كل مخالف للقانون وكل ساع إلى الشهرة. وقد استغلوا خوف بعض المسؤولين من كشف الإعلام العالاف والجاد المعني والحر وخروقاتهم وفضائحهم، لذا استقبلوهم وساعدوهم ودعموهم، حتى أضحو أكثر قوة وأشد بأساً من الصحافيين المهنيين..

أصدرت وزارة الاتصال 2572 بطاقة مهنية للصحافيين سنة 2015 وتم إيداع 254 تصريحاً بإحداث مواقع رقمية إخبارية.

شبح الصحافيين الطفيليين

ينتحل مهنة «صحافي» ويزعّم أنه أعظم صحافي في الغرب، يليقه محترفو مهنة المناعب بشيخ الطفيليين، ويطلق عليه آخرون «أشعب» لتطوله على الولائم والحفلات الدبلوماسية والإيام الدراسية التي تشهدها الرباط.

مشهور لدى القاصي والداني، شخصه معلوم عند الصحافيين الأجانب ومديري مكاتب الجرائد والقنوات والإذاعات العالمية في العاصمة، ومعلوم لدى اللقبن الصحافيين بالسفارات المعتمدة بالغرب. يقف مديرات بعض شركات التواصل المكلفة بتنظيم المؤتمرات والندوات والأيام الدراسية الدولية والحصول، لأنهن أدري بحيله بعد أن كشفن أمره في لقاءات سابقة، فنشهرن به وطردهن ونشوهن سمعته وحرمنه من الأكل والشرب، وهددنه بدعوة رجال الأمن وهو يخشاهم لسوابقه في ارتكاب الجح والجنائيات والمخالفات.

أكلو شرب، يلتهم قطع الحلوى المغربية اللذيذة التهامها، ويملا جيوب

وحتى الحقوقية والصحافية، وكذا منظمات الأطباء والمحامين. له علم بالسوابق كلها.

توصف أسئلته بالمزجة وتشبه بالقبائل الذرية، يحاج بقوة، ويقدم أدلة منقطعة النظير، يتقن طريقة تجميع المعلومات السميّة والفضائح السرية عن كل مسؤول يحضر ندوته الصحافية، أو لقاء سيكون حاضراً فيه كضيف شرف أو كنجم، يعكر عليه مزاجه بطرحه لأسئلة خطيرة طويلة تشمل معلومات وأرقاماً مثل:

معالي الوزير لماذا انقلبت على الأمين العام للحزب، ولي نعمتك، وسيطرت على الحزب قبضة من حديد وعلى كل أجهزته من قطاع الطفولة والمرأة والشباب؛ ولماذا لم تحاور مخالفيك في الرأي؛ ولماذا طردت كل الموالين للأمين العام والرئيس المؤسس؛ ولماذا ترفض ترك منصب الأمين العام بعد

الإقصاء ولايتك الثالثة (والرابعة)؟  
ويسأل زعيماً نقابياً بطالب مؤسسة الخزن بتطبيق الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وهو لا يطبقها في نقابته كما لا يحترم حقوق الإنسان ولا حرية التعبير؛

سيدي لماذا ترفض نقابتكم وغيرها إصلاح قانون النقابات؛ ولماذا لا تترك منصب الكاتب العام للنقابة بعد نهاية ولايتك الثانية والثالثة.. والسابعة؛ ولماذا لا تصرح شركة ابنتك بالعمل لدى مؤسسة الحماية الاجتماعية؛ لماذا لا تدفع شركة ابنتك الضرائب؟

يكره منتحل صفة «أخطر «صحافي» مغربي حضور المظاهرات الاحتجاجية والندوات الصحافية التي تنظمها أكبر الجمعيات الحقوقية الغربية والمنظمات الدولية الحقوقية العاملة بالرباط في مقراتها الباردة، لأنها لا تقيم حفل شاي على شرف المدعوين والطفيليين على حد سواء، يصفا بالبخيلة، وإن تكرمت على بعض الصحافيين من المدخنين، فإنها تقدم لهم كوباً صغيراً من القهوة المرة الحالكة.

يزدري الطفيلي أشباهه الذين يحضرون إلى الندوات قصد الأكل

والشرب وحمل الطعام قبل انتهاء المدعوين من الأكل، خاصة بعض الموظفين - الملحقين الصحافيين - الذين يتلقون رواتب محترمة وسمينة، ويسمّم بأذع الأوصاف، لأنهم يخافسونه.. بعضهم محظوظ فلدبه جريدة تصدر مرة في السنة، وهم يتوفرون على مصادر نيمية تخبرهم بجميع الأنشطة المنظمة في العاصمة وغيرها، يضعون خططا للتمكن من حضور الولائم والأعراس والندوات والجنائز والتأبينات.. يفرحون حين يموت وزير أو سفير سابق فيولون وجوههم شطر بيته للقيام «بواجب العزاء». يتحارزون إلى أن يشيعوا فتنشرو صدورهم ويستقلون حضور أي مسؤول، يسألونه صدقة يسبب وضع أسري طارئ. وقد برع أحدهم في البكاء وإدعاء أن ابنه سيموت إن لم تجر له عملية جراحية الآن...

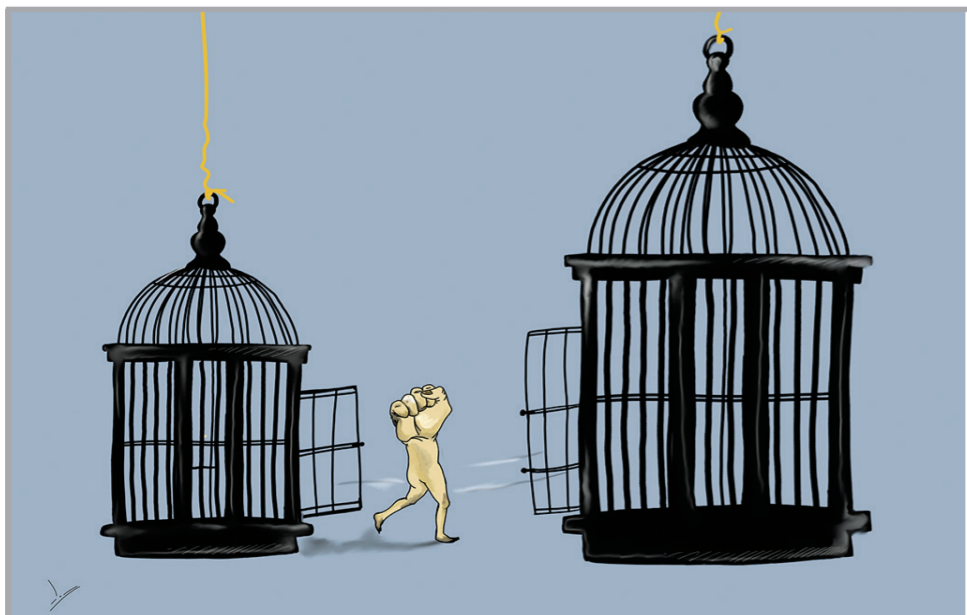
لا تحضر عصابة الطفيليين عندما تنظم أنشطة حقوقية أو أي حراك احتجاجي تتخلله مظاهرات أو وقفات للمطالبة بالفصل بين السلطة والثروة وحقوق المرأة والحريات الفردية وحرية الضمير والمعتقد، وتعلن العصاية كل جمعية تساند مضرباً عن الطعام.. وترفض عناصرها حضور الاعتصامات والإضرابات والندوات التي تنظمها الأحزاب اليسارية والحركات الأوسولية، لأنها شحيحة لا تكرم وقادة ضيوفها بلحم مشوي أو دجاج محمر.

كيف يستمر فرد من العصاية؟

يدير جريدة تصدر مرة في العام، ويديجها بالتهاني والتبريكات التي يرفقها بالتخبون والسؤؤلون إلى السدة العالي بالله، يحصل على بطاقة الصحافة التي تصدرها وزارة الاتصال بأعجوبة، ويحصل على العضوية في فيدرا الية الناشرين. فهل يستطيع أحد أن يقول له أنت لست صحافياً؟

### صالح بن الهوري

صحافي من المغرب



## عيد ميلاد التغيير



ملفوفة بملاء الأطفال حديثي الولادة.

باقي ملامح الناس تقول إن هناك شيء آخر كان ينبغي أن يتغير في التغيير، ما هو، من هو، لا أحد يجيب.

هبي بيرث داي تو يو بببي. هبي بيرث دي تو يو أيها البببي الذي

لا يكبر.

## تفسير الاستثناء المغربي

يوصف المغرب بأنه بلد استثناء، وقد تعزز هذا الوصف منذ أحرق البوعزيزي نفسه، هذه محاولة لتفسير الاستثناء: العمل الأول جغرافي. فالأمكنة تصنع القوانين. المغرب بعيد عن الشرق الأوسط والله الحمد. بعيد عن القلاقل. محمي بالبحر من شماله وغربه. البحر نافع وغير ضار مثل البشر. في الجنوب هناك جدار أممي غير قابل للاختراق وفي الشرق الحدود مع الجزائر مغلقة. موقع المغرب على الخريطة ثروة في حد ذاته، مصدر قوة اقتصادية لا تقدر بثمن. يملك المغرب حسب بول باسكون «قدرا جيوسياسياً وموقفاً خارقاً للعادة في البحر الأبيض المتوسط». لماذا؟ يجيب باسكون (وهو أب السوسيوولوجيا المغربية إلى جانب عبد الكبير الخطيبي، ومن طلبته عبد الله ساعف ومحمد الناجي ومحمد الطوزي) «المغرب أكثر بلدان هذا البحر رياً ومطراً، وأكثرها أراضي صالحة للزراعة، مع غياب قنطرة البرد الكبرى...»

المغربي طبع ومزاج مثل مناخ البلد. لديه مزاج فلاح صبور. يعكس المناخ المعتدل والغطاء النباتي ومزاج البشر على الاقتصاد. الفلاحة صمام أمان ضد اليأس وتمرد العدة. لا مكان للجوع في المغرب. حتى في سنة الجفاف لا مكان للجوع. وليس صدفة أن الطبخ المغربي صار عالمياً. قبل الأفق السياسي، يطالب الجمهور بأفق اقتصادي. لذلك قدست السياسات العمومية المغربية البوادي. يوجد الرزق في الحقل فلزم الالتصاق به. راكم الاستقرار معرفة الفلاحين بتقنيات الحرث والزرع، وراكم الاستقرار بالأرض الاستقرار السياسي. مجتمع زراعي مستقر لديه ما يخاف عليه. لذا يفضل التسويات. ضمنت قلة السكان والأرض الشاسعة تخفيفاً منسوب الاحتكاكات والصدامات لحد الصفر أحياناً. وقد عملت الدولة على حماية الريف من اليأس، مثلاً في المغرب تسعة ملايين هكتار غابات، نظرياً يمنع فيها الرعي والحطب والحرث والقطف، لكن فعلياً فالسكان يستفيدون منها. وقد زادت مساحة الغابات بـ116 ألف هكتار في 2015 لأن الدولة تشجع الأراضي لحمايتها من التعرية.

الفلاح معزٍ بحقله ولا يريد تدخل من أحد. لذا لا ينتظر المغربي الكثير من الدولة. وهكذا تعلم الناس حل مشاكلهم بأنفسهم. نموا ثقافة الاحتياط للأيام ولا ينتظرون الكثير من السلطة «الخرن». هذه ثقافة مفيدة علمياً المغاربة في المغرب لأولادهم وتقديمهم حيثما حلوا وارتحلوا. لقد أفرز الحقل الديموقراطية الريفية المغربية. في المدن المغربية لسة ريفية لذا تتجول فيها الحمير المحملة بالخضر. حتى في كومبديا التلفزيون المغربي لسة ريفية. لسة؟ أكثر. جل الجنود والبوليس أبناء مزارعين، التدين المغربي متأثر بالاقتصاد الفلاحي، وقد تعود المزارعون تفسير

الفروق بين المجتمعات بالبيئة الطبيعية. يظهر هذا في التدين المغربي. يوجد فرق بين مفتي ولد في صحراء شاسعة تشهد عواصف رملية ومفتي ولد في حقل متعدد الأشجار ومسبح، يفصل السياح بين حقل الأنا وحقل الغير.. يجب ألا تعبر الفتوى السياح. وقد تعمق هذا في وعي الأفراد.

لقد عرف المغرب موجات متعاقبة من الغزو والهجرات جعلت ساكنته - العربية / الأمازيغية / الأمازيغية - متنوعة متعايشة وبالأساس متجانسة دينياً. ترسخ المذهب المالكي منذ ألف عام وقد وفر هذا التجانس عمقا أفريقياً للمغرب. وقد عمل الصلحاء والأولياء على ترسيخ هذا التجانس. للأولياء تأمين إلهي ضد الخوف والحزن. قال تعالى «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»، وهذا تأمين حتى للدولة.

يبدو لكم هذا فضفاضا؟ طيب. إليكم تفسير واقعي: الدستور الذي تصادق عليه الزوايا نُبِيت على الأرض. إليكم تفسير تاريخي وسوسيوولوجي لهذا الكلام. يقول العروبي «هذه الحركة التعبدية التصوفية.. هي التي جعلت من الإسلام عقيدة قومية، متصلة في البنية الاجتماعية وفي السلوك الفردي، تقوى بقوة الدولة من دون أن تضمر بضعفها واتحلالها. كلما أحقت المخاطر بالمغرب، وأشرف على التفسخ والذوبان في كيان سياسي آخر، انتعشت الحركة الصوفية وأنقذته وجعلته يستمر كمجتمع متميز قادر في أية لحظة على أن يكون قاعدة لدولة مستجدة». هذه القاعدة ضرورية، وقديماً اشترط أرسطو في الدولة أن تتوفر على عناصر الاكتفاء الذاتي، وهذا متوفر في المغرب. توجد دولة لها عمود فقري لم يسحق قط. مثلاً لم يخضع المغرب للدولة العثمانية واستعمرت فرنسا المغرب 44 سنة. بينما خضعت الجزائر للعثمانيين فرون عدة واستعمرتها فرنسا 132 سنة. النتيجة هي بقاء العمود الفقري، يقول العروبي «يملك الحكم قاعدة اجتماعية وموارد خاصة به، ويملك المجتمع بنية أو بني سياسية خاصة به. على هذا التقاسم تم التعايش والاستقرار رغم ما تحفل به الأخبار من قلاقل وتحركات».

على الأرض، تدبر السلطة هذه التحركات بحذر، تعتمد على تدبير ميكروسكوبي للجمال. فهناك «مقدم» (وهو عون سلطة ميداني في منطقة يعيش فيها) يقوم بجولة صباحية في المنطقة التي يتولاها وغالباً ما يسجل تحولات في العقار. يجلس في بعض المقاهي ليصفي لما يدور. هو رجل ميدان ليس لديه وقت عمل محدد أو مكتب.. يمكن هذا العون وزارة الداخلية من جهاز مستيقظ منتبه سبعة أيام على سبعة.

كيف يتم اختيار عون سلطة؟ كلما كان تعليمه مخفضاً كان قريباً للعامية يفهم

الشعب بسهولة. وقد كشف وزير الداخلية أن العديد من الدول تحاول استنساخ التجربة الغربية فيما يتعلق بالمقدمين والشيوخ، الذين يعدون عين وزير الداخلية على سائر التراب المغربي. أوضح الوزير أن «30 في المئة من هؤلاء الأعوان تجاوزوا عمر 60 سنة، ويتم الاحتفاظ بهم نظراً للخبرة والتجربة التي اكتسبوها». خبرة الرقابة لا تمنح لها.

يوفر هؤلاء الأعوان معلومات فورية للسلطة لتدبير المجال، فمثلاً حين يحتل الباعة المتجولون فضاء، يخبر عون السلطة بذلك ويخاطب التجار ليعلمهم أن السلطة قادمة ومن الأفضل أن يخلوا المكان. ونادراً ما يأتي الشرطي ويصغف البائع المتجول، بل قد يبرجوه أن يدخل المكان. لأن الشرطي مأمور ويقول للبائع المتجول «أرجوك لا تسبب لي مشاكل مع الضابط». هكذا يصل الشرطي والبائع إلى تسوية. آخر مثال للتسوية اعترض شاب مكعب الملك محمد السادس فتساءل صحافي مصري «لماذا لم يطلق حراس الملك الرصاص على الشاب؟».

لا داعي للرصاص في المغرب، هناك حيل أفضل، وقد وصف محمد الساسي - الذي أفنى عمره في المعارضة سالماً - ممارسات السلطوية في المغرب بأنها «استبداد متنور» بقلقات حريرية بيضاء تغطي بدأ حديدية. وأضاف الساسي أن «السلطوية كل مرة تتلون وتتموقع حسب ما تمليه المصلحة». توجد مصلحة البلد في التوافقات. وهذا منهج تتبناه النقابات التي تعالج كل مصيبة بمنطق «إيجاد مخرج استثنائي في إطار التوافق وهمد الفجوة». وقد سبق للحسن الثاني أن قال «إن التراضي، حتى وإن كان فيه ما يبغض طرفاً من الأطراف بعض حقه، هو خير من أي نزاع». كان هذا نهج الملك الحسن الثاني وليس نهج القذافي وصدام. وحين قلت لعراقي أن المغرب عرف سياسياً اعتقال خمسة آلاف شخص ومقتل حوالي مئتين في أربعين سنة من حكم الحسن الثاني، أجابني: «القمع المغربي شوكلاتة».

نتيجة الشوكلاتة: ما قد مرت خمس سنوات على حركة عشرين فبراير 2011. لا مظاهرات كبيرة في الشارع، لكن المجتمع يطالب بالقضاء على اللامعالية التوزيعية لثمار التطور، خاصة أن نسبة النمو زادت عن أربع في المئة طيلة العشر سنوات الماضية. في انتظار تحقق هذا الطلب، فالملك محمد السادس يلتقط صور سيلفي مع الشباب في الشارع، ورئيس الوزراء يمنح الميكروفون لشباب غاضب ليقدم له دليلاً على فساده.

محمد بنعزي

كاتب وسينمائي من المغرب

حلم..

تفريد البقشي / السعودية



arabi.assafir.com

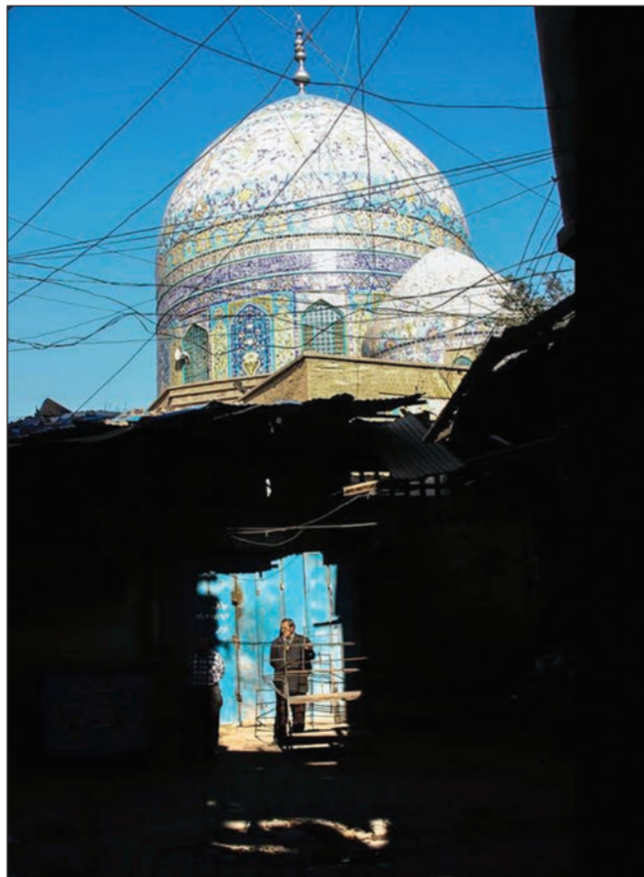
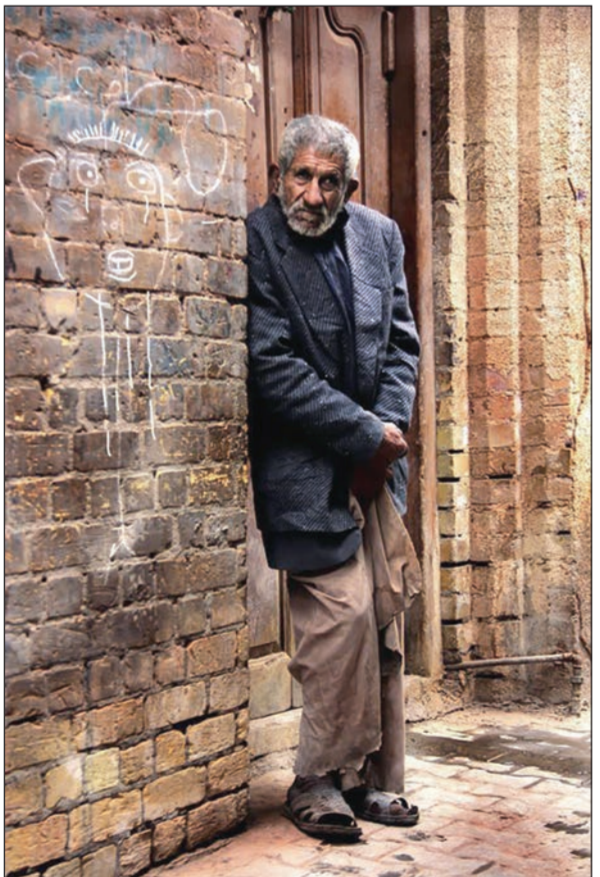
المزيد على موقع «السفير العربي»  
- أفاق المقاطعة الاقتصادية الفلسطينية لإسرائيل - رجا الخالدي  
- تطوير المناهج التعليمية في مصر: سمك لين تمر هندي! - إيمان رسلان  
- الرياضة النسوية في العراق: انحدار كبير - عبير عامر  
- تابعونا على «فايسبوك»: السفير العربي - Assafir Arabi  
- تواصلوا معنا على «تويتر»: @ArabiAssafir

.. بألف كلمة

## بؤس العراق

في 21 آذار/ مارس 2003 بدأ غزو العراق، تدميره، واحتلاله من قبل «تحالف دولي» بقيادة الولايات المتحدة الأميركية. كانت هذه بوابة جديدة لخراب البلد صاحب الإمكانيات البشرية والاقتصادية العائلية. وما زال الخراب يفعل فعله، وتُصاف عليه ضربات جديدة..

(تصوير: هاتف فرحان)



انت لسه بتدرّس!؟

صرخ في وجهي شخص لا أعرفه جيداً أثناء نقاش حاد بين «مثقفين» على مقهى الانتشراح برام الله: «والله إنك أستاذ مدرسة!»، (كانها شتيمة) ثم عض على شفتيه واعتذر، لم أجبه، فقط ابتسمت. قال لي شخص آخر أعرفه جيداً وأنا استأذنه للذهاب إلى مدرستي بعد قهوة صباحية في مقهى: شوووو! إنت يا زلمة لسه بتدرّس؟ معقول؟ لم أجبه، فقط ابتسمت.

أقول لهذين الشخصين اللذين يمثلان بصراحة نظرة المجتمع العامة لمكانة المعلم: إن أحد أهم أسباب هبنتنا السلمية والتبيلة ليس فقط المطالبة بحقوقنا المالية بل أيضاً استعادة مكانتنا الاجتماعية التي سُرقت منا قبل الحصول عليها، (عجيبة فكرة استرجاع مكانة لم نحصل عليها بعد) في مناخ ثقافي بالغ التخلف، ومناهج دراسية في قمة الخنوع والسطحية والتزهل وبيئة سياسية غاية في الإنحطاط والفقير، وفكر اجتماعي متعفن يفتقر لحس العدالة وروح المستقبل. انتبهوا، أنا الجزء العنق من الجسد الفلسطيني الذي يحيث له أشخاص رائعون في الطريق، أما هؤلاء فحتى ظلّهم لا تخنيت لهم.

أنا الآن ابتسم

زيارة لماهينور المصري في سجنها

حكّلتنا ماهينور عن «الكواحيل»، قالتلنا إن دي أزمة موجودة في اسكندرية بكثافة، والكاحول هو الشخص اللي يتعمد دفع مبلغ بسيط له من مقاول المباني (المخالفة دائماً) ويتم بيع العقار لهم بشكل صوري بحيث يتحمل هو المخالفات ويواجه الحبس وحده، «لو بصيت للسنوات دول والفقر معلم على وشحم، وهما متهمين بقضايا باللايين». ولغاية دلوقت المسؤولون أحرار طلقاء ولسه لغاية دلوقت مئات من الفقراء بيدخلوا لنفس السبب. «ولاً عام الطلاب، دا اللي أتحننا فيه والطلاب لسه في السجن، كل تهمتهن التواجد في جامعتهن في وقت الترويج لقانون التظاهر...». وحكّلتنا عن موظفات دفعوا تمن إنهم مارضيوش يبنطحوا للضباط فلنقت لهم القضايا اللي ماتخلصش. كل الستات دول اتعرضوا لكم الذل والقهر برا والنظام قرر مايحرمهمش منه جوه، من أعداد السجينات اللي ملوا بيهم السجون وكدهوسهم في زنازين غير آدمية صغيرة، لمياه تنقطع عنهم لأكثر من 20 ساعة، أو ساعات تريض ماتزديش عن 5 ساعات في أوضة يبسمحوها للشمس تدخل على استحياء من خلال أسلاك..

«السجن هو اللي دائما بيؤكد لي إننا ماغلطناش ما لحلمنا بعالم أفضل وثرا.. يمكن تكون أخطأنا في بعض مسارات الثورة ولكننا ماغلطناش في مشاركتنا فيها. هناك من الأسباب ألف تؤكّد لنا عدم ثققتنا ولا إيماننا بالنظام العادي للفقراء...» قالت ماهينور.

من صفحة Miral El-Massry (عن فايسبوك)

مدونات

«التصوير وعلاقتي به كشخص كيف»

من فترة لا بدأت اعتبر التصوير هواية عندي، لغيت السؤال بيطلردي على الخصاص أو تعليقات على العام سواء هنا أو على الشبكات الاجتماعية الأخرى. حاول أشرح الموضوع دا جه إزاي وإزاي بصور.. ببساطة شديدة يستخدم هاتفي في التصوير. الحاجة اللي حاسسها بصورها زي ما هي وزي ما تطلع بشاركها على الشبكات الاجتماعية.

يعني فين الإجابة؟ ببساطة أكثر الشمس في أوقات النهار المختلفة هي والقمر بالليل عارف أماكنهم فين بالضبط وداعا للتعود وسؤال اللي يبيششوا زمان معايا لأنني كنت شخص فضولي جداً وما زلت، ويجب أسأل كثير اللي بيقولوا يبيششوا معايا عن طبيعة المكان إيه هنا...

إيه اللي يستفيد من التصوير؟ التصوير عندي متعة خاصة وهي إني أنقل اللي حاسس بيه صورة للغير ينشوفها حلوة أو وحشة، أنا لسه بتعلم وحفظ وأتمنى أني أقدر أحافظ على الهواية دي وما تندثر متي زي ما هوايات كثير في حياتي اندثرت إما لسخافة بعض البشر أو عشان أحافظ على شوية احترام لنفستي.

شكرا لكل اللي شجعوني وعلموني إزاي أكمل هوايتي دي.

من صفحة محمد أبو طالب (عن فايسبوك)

من صفحة زياد خداش (عن فايسبوك)